

سوق العسرونية الدمشقي

"دراسة تاريخية تراثية"

Damascus's "Asrouniyeh" Market "A Historical and Heritage Study"

أ.د. غادة حسن

أ.د. سامي مرعي

أستاذ دكتور-كلية الآداب

أستاذ دكتور-كلية الآداب

جامعة اللاذقية

جامعة اللاذقية

أ. ليندا حميشة

طالبة دكتوراه-كلية الآداب-جامعة اللاذقية

الملخص

تعد دمشق من أقدم عواصم العالم التي ماتزال مسكونة إلى يومنا هذا، والتي تحافظ على تراثها في معظم أحيائها وأسواقها، لذا تعد من المدن الإسلامية الأكثر نشاطاً تجارياً، حيث ازدهرت فيها الأسواق والصناعات والحرف وال، ولعل من أبرز هذه الأسواق، سوق العسرونية.. الذي ينسب لبناء مدرسة العسرونية فيه وأثرها الواضح في تكوينه وازدهاره ونشاطه، وما يزال إلى يومنا هذا يشهد نشاطاً تجارياً، ويُعد من المشيدات التراثية في مدينة دمشق، ولهذا يجب المحافظة عليه، والتأريخ له من خلال المصادر التاريخية والمراجع، وما جرى فيه من أحداث إلى يومنا هذا.

كلمات مفتاحية: (دمشق - سوق العسرونية - بنك زلخا - زقاق - زلازل - حرائق)

Abstract

Damascus is one of the oldest capitals in the world that is still inhabited to this day, and which preserves its heritage in most of its neighborhoods and markets, Therefore, it is one of the most commercially active Islamic cities, where markets, industries, crafts, and so on flourished, perhaps, the most prominent of these markets is the Asrooniya Market, which is attributed to the construction of the Asrooniya School in it and its clear impact on its formation, prosperity and activity, it still witnesses commercial activity to this day, and is considered one of the heritage buildings in the city of Damascus, therefore, it must be preserved and its history must be documented through historical sources and references, and the events that took place in it, to this day.

Keywords: (Damascus - Asrooniya Market - Zalkha Bank - Alley - Earthquakes - Fires)

المقدمة

تنوع النشاط التجاري في مدينة دمشق عبر عصورها المختلفة، وما تزال بعض الأسواق شاهداً على تلك الفعاليات من بيع وشراء، حيث خصصت أسواق متعددة لهذه البضائع ولكن هذه الأسواق شهدت تطوراً ملحوظاً من حيث التطور التاريخي والاجتماعي والعلمي، وأكثر ما يميز هذه الأسواق وجود عدد من المهنيين التي ماتزال تلبى احتياجات المجتمع رغم التطور الصناعي الذي نشهده في يومنا هذا ووجود نظام يضبط عملية التبادل بين الشاري والبائع، ومن يراجع تاريخ دمشق الاقتصادي يقف أمام عدد كبير من تلك الأماكن التي كان لها الأثر الواضح في حياة دمشق الاجتماعية والاقتصادية، ومن هذه الأماكن يمكن الإشارة إلى إحدى الأسواق التاريخية والتراثية الهامة ألا وهو سوق العصرية.

إشكالية البحث:

لعل من المهم بداية أن يتبادر للباحث والمهتم تساؤلات تدور حول أين يقع هذا السوق؟ ومن أين جاءت تسميته؟ وماهي أقسامه وامتداده؟ وما هو التطور التاريخي لهذا السوق؟ إن الإجابة على هذه التساؤلات تلزم الباحث الغوص في طيات الكتب من مصادر ومراجع ودراسات حديثة، ولذلك فإن المنهج المتبع في البحث يستطيع ترتيب الإجابة على هذه التساؤلات.

أهمية البحث:

إن أهمية هذا البحث تكمن في رصد وتبيان وتوضيح تاريخ هذا السوق، والتدليل على النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعلمي له هذا من جانب، ومن جانب آخر الوقوف على مدى التطور العمراني، وما طرأ عليه من تغيرات وكل ذلك سيكون مستنداً إلى المصادر الرئيسية التي تساعد الباحثين على تأخير وتأصيل هذا السوق.

منهج البحث:

يشكل المنهج قاعدة يستند إليها الباحث في عرض مادته العلمية وترتيبها، وتختلف طبيعة المنهج حسب موضوع الدراسة فالمنهج التاريخي هو نقطة انطلاق الباحث في دراسة التطور الحضاري في أي معلم تاريخي وأثري، والمنهج المتبع في هذا البحث يعتمد على الوصف والتحليل والربط والاستنتاج، إضافة إلى أن أركان هذا المنهج لا يتم إلا بتوثيق المادة العلمية أصولاً، وقد تم تقسيم البحث إلى النقاط التالية:

مقدمة، وتشمل إشكالية البحث وأهمية البحث، إضافة إلى المنهج المتبع في تدوين هذا البحث، وموقع دمشق الجغرافي والتاريخي، وكذلك أسواق دمشق، إضافة إلى تعريف السوق لغة واصطلاحاً، ثم الحديث عن سوق العسرونية، وعن أقسامه، وأهم المعالم العمرانية في هذا السوق، إضافة إلى أهم الصناعات والحرف التي أشهر بها سوق العسرونية ومازال، وذكر السلع التي تباع فيه، وكذلك تم عرض الكوارث التي لحقت بسوق العسرونية من زلازل وحرائق، ومن ثم الخاتمة.

الدراسات السابقة:

إن طبيعة الدراسات السابقة التي تناولت دراسة هذا السوق تتميز بالعرض التاريخي لتطوره، وقد بذل جهد مضني في الوقوف على دراسة أكاديمية تاريخية أم أثرية أم سياحية، فلم تسعفي الجهود المبذولة في رصدها من هذه الدراسات، لذلك تم الاعتماد على الكتب التي تناولت تاريخ مدينة دمشق وتطورها عبر العصور، ولهذا يمكن القول بأن هذه الدراسة تعد من الدراسات الأولى التي اختصت في تاريخ هذا السوق الذي يعد من معالم دمشق التاريخية والأثرية، ومن هذه الدراسات الحديثة كتاب (معجم دمشق التاريخي)، للدكتور قتيبة الشهابي، وكتاب بعنوان (دمشق الأسطورة والتاريخ)، للدكتور حسن زكي الصواف، وكتاب بعنوان (دمشق الأسرار)، للدكتور نصر الدين البهرة، وغيرها.

أسباب اختيار البحث:

تمكن أسباب دراسة هذا البحث في النقاط التالية.

- 1 - لم يتم الوقوف على رسالة جامعية أو بحث منشور في الدوريات الأكاديمية.
- 2 - ما أسهم فيه هذا السوق من نشاط تجاري وعلمي.
- 3 - الكشف عن تاريخ تطور هذا السوق.
- 4 - مدى تطور الحالة الاجتماعية لمدينة دمشق وانعكاسها على هذا السوق.
- 5 - أهمية مدرسة العصورونية في تطور المنطقة التي امتد عليه هذا السوق.

موقع دمشق الجغرافي:

تقع دمشق الشام أو ببساطة الشام (داما سكوس باللاتينية) و(داماس بالفرنسية)، وهي كبرى المدن السورية على خط طول شرقي 36,18 وخط عرض شمالي 33,30 على نفس ارتفاع بغداد وفاس عن سطح البحر إي بحوالي 700م تقريباً، وعلى امتداد الصحراء عند سفح جبل قاسيون إحدى المرتفعات الجبلية لسفوح جبال لبنان الشرقية، وتترامى البادية من حولها باتجاه الشرق والشمال الشرقي حتى نهر الفرات وباتجاه الجنوب حتى الجزيرة العربية. (اليساف، ن. 2011)

الأهمية التاريخية لمدينة دمشق:

تعود جذورها إلى آلاف السنين ق.م، حيث ورد ذكرها في نصوص تل العمارنة، وهي من المدن التي غزاها الفرعون تحتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيث احتل سورية لفترة من الزمن، وقد دلت الدراسات الأثرية على الأهمية التاريخية لهذه المدينة في مواقع متعددة، لعل أهمها تل أسود، وتل العزيقة يقعان جنوبي بحيرة العتيبة، وتل الرماد في طريق سعسع، (العش، م. ب. 2006) ويؤكد ذلك سوفاجيه من خلال الدراسات التي قدمها عن مدينة دمشق ومكوناتها وآثارها عبر العصور المتعاقبة، حيث فصل في كثير من آثارها وتاريخها ومخططها في العصر الروماني وما تلاه من حقب تاريخية أخرى. (سوفاجيه، ج. 1991).

ولا يمكن لأي باحث أن يشيخ بوجهه عن تاريخ هذه المدينة الموعّل في القدم، ففي هذه البقعة شهدت تجمعاً سكانياً يعد من أقدم التجمعات السكانية التي تحضرت وتمدنت، فمدينة دمشق تعد من أقدم المدن المأهولة بالسكان، وما تزال امتداداتها البشرية إلى يومنا هذا مستمرة في إشغال المكان واستمراره، حيث يشير مؤرخ دمشق المعاصر حسن الصواف في قوله: (.... تعد مدينة دمشق أقدم مدينة في العالم صمدت على مر العصور المتعاقبة وكانت مركزاً وعاصمة لكثير من الحضارات والدول، وإن جميع الحضارات والعهود التي مرت على هذه المدينة تركت أثراً لها رغم الدمار والخراب الذي لحق بأوابدها ومعالمها التاريخية،

كما تعد المباني الأيوبية والمملوكية والعثمانية أغنى المباني القائمة حتى الآن، وإن نسيج المدينة القديمة الناتج عن البيوت السكنية والمحلات التجارية والصناعية والحرفية، يعتبر عنصراً حيوياً يعطي المدينة الحياة الاستمرارية، هذا فضلاً عما في المدينة من أسواق أثرية وخانات وحمامات ومباني ثقافية وتعليمية، بحيث امتزجت كل هذه النشاطات مع بعضها البعض). وإذا ما أراد الباحث والدارس للوقوف على أهمية دمشق الاقتصادية يجد إن هذه المدينة قد تمتعت بسمعة تجارية ونشاط اقتصادي دللت عليه كثرة الأسواق والخانات والفنادق والقيثاريات، ولعل ما أورده كتب تاريخ دمشق قديماً وحديثاً، يدل على هذا النشاط رغم النكبات التي عصفت بهذه المدينة، ويذهب الأستاذ العلي بقوله: (.... إن مدينة دمشق كانت على مر العصور مركزاً تجارياً هاماً بسبب موقعها الجغرافي ومهارة أهلها في أمور التجارة والصناعة، وإلها كانت تأتي القوافل التجارية من مختلف المناطق منذ العصور القديمة في عهد الآراميين ومن جاء بعدهم حتى ظهور الإسلام)، (العلي، أ. ح. 1989) وظهرت أهميتها في العصر الأموي لكن سرعان ما تعرضت للنكسات في العصر العباسي، غير إن العصور المتعاقبة السلجوقي، الزنكي، الأيوبي، المملوكي، العثماني، ازدهرت فيها المدينة وتطورت في مجالات مختلفة.

أسواق دمشق:

أمام هذا التطور والازدهار الاقتصادي الذي شهدته مدينة دمشق، فإن الدلائل العمرانية تعطينا معياراً صادقاً على قوة ازدهار هذه المدينة والدور الذي أسهمت فيه محلياً، إقليمياً، دولياً، فقد قدم لنا معجم دمشق التاريخي عدد الأسواق (303)، والقيساريات (49)، والخانات (130)، والفنادق (16)، (الشهابي، ق. 1999) وقد صنف ابن عبد الهادي رسالة في الأسواق في أواخر العصر المملوكي، وذكر في مقدمة رسالته: (... هذه نبذة يسيرة فيها ذكر أسواق دمشق، وما يتعلق بها ويبيع فيها، وما تنسب إليه فمنها ما ينسب إلى محلته، ومنها ما ينسب إلى واضعه)، (ابن عبد الهادي، ج. ي. 1988)

ومن أشهر الأسواق التي ذكرها سوق الدهشة، سوق الحرير، سوق العنبرانيين، سوق البزوريين، سوق الجوخيين (الشهابي، ق. 1999). ومن الأسواق الأخرى المشهورة في دمشق خلال العصر المملوكي سوق تحت القلعة، وهو في الواقع مجموعة أسواق ويعد من أشهر أسواق دمشق المملوكية وأشدها إثارة للغريب، وأكثرها بضائع وخدمات وحركة، يقصده الأمراء والجند والعامّة فيجدون فيه ما لا يخطر لهم على بال، (ابن عبد الهادي، ج. ي. 1988). حتى إنه يمكن أن نشبهه بمعرض دمشق الدولي حالياً، مع فارق جوهري وهو إنه يدوم طوال العام مع المحافظة على حيويته وحركته ونشاطه ورواده، ويقع هذا السوق في الأرض الواسعة الممتدة إلى الشمال الغربي من القلعة، وهي المنطقة التي تضم اليوم سوق علي باشا، وسوق العتيق، وسوق الدرويشية، وجامع يلغا وساحة المرجة حتى سوق ساروجة، وقد زاره (البدرى) في القرن التاسع فقال: (... إن فيه كل ما يرومه الإنسان لا يحتاج ساكنه لحاجة من المدينة، فيه دار البطيخ، وفيه عين الماء العذبة الباردة، وبه مجموعة أسواق للقماش، وبه سوق للنحاسين والسكاكين والقربيين والقشاشين والخضريين والمحاييريين والنجارين والخراطين...)، (العلي، أ. ح. 1989). وهو أشبه ما يكون في يومنا هذا مجمع تجاري (مول) فلا غرابة في ذلك فنظام القيساريات كان شبيه بهذا السوق.

ومن الأسواق الأخرى في دمشق في العهد العثماني منها سوق الزنوطية، وكان بالقرب من الجامع الأموي وعند انهياره استخدمت حجارتها المعقودة في بناء قصر العظم، أما سوق الدق فمن المحتمل أن تسميته بالدق هي تعبير عامي مشتق من سوق الدقايقين، وهنا أيضاً سوق (ترزي باشا) بالقرب من سوق الأروام، ثم سوق الألاجة وفيه مسجد العباسي الذي يعرف بمسجد سوق الأحد وهذا السوق يمتد من الشارع المستقيم حتى الباب الشرقي. (الشهابي، ق. 1990).

تعريف السوق لغةً واصطلاحاً:

لغة: السوق كلمة آرامية أطلقت على أسماء الشوارع والأماكن، وهي في اللغة العربية تعني موضع المبيعات، وهي تُذكر وتؤنث، وجمعها أسواق. (ابن منظور، ج. أ. م. دون تاريخ).

واصطلاحاً: تعني الموسم وهو الموضع المحدد الذي يؤمه الناس في زمن معين من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معاً. (البستاني، ب. دون تاريخ) وفي العرف العام تطلق على المكان الذي يجتمع فيه الناس من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معاً دون تحديد الزمان أو المكان، ولا لنوع البضاعة المتواجدة في ذلك المكان سواء كانت ضرورية أم كمالية. (ابن خلدون، و. د. ع. ر. 1988).

الأسواق نوعان: دائم وغير دائم، الدائم محلي ثابت لم يخضع لزمن معين، حيث كان ينصب للبيع والشراء في كل يوم، أما غير دائم فكان يخصص لإقامته وقت من العام أو الأسبوع، وكان يقام في الغالب خارج أسوار المدينة، وقد ضم هذا النوع عدة أنماط من الأسواق مثل الأسواق الموسمية، والسنوية، والأسبوعية، والأسواق المرافقة للجيش وأخيراً الأسواق الطارئة وقت الضرورة. (الشهابي، ق. 1986).

سوق العسرونية:

يؤكد لنا الدكتور الشهابي إن هذا السوق كان يقع تحت القلعة، حيث كان موضع هذا السوق قديماً مؤلفاً من سوق مجاور له من جهة الغرب يسمى (سوق القلعة) بينه وبين سوق الطرايبشي المسائر لجدار القلعة الشرقي والذي يُعرف الآن باسم (سوق نصري)، أما حديثاً فهو يمتد من الجنوب إلى الشمال بين سوق الحميدية قبالة زقاق المرستان تقريباً وسوق المناخلية، ذكرته خارطة شرطة دمشق الصادرة خلال الأعوام (1922-1924م)، باسم زقاق البنك نسبة للبنك الإمبراطوري العثماني الذي تواجد فيه، وعند تنظيم المنطقة في فترة لاحقة ضُم زقاق البنك وسوق القلعة إلى بعضهما فشكلا سوقاً واحداً هو السوق الذي نطلق عليه حالياً اسم سوق العسرونية. (الشهابي، ق. 1990). وهو سوق متوسط العرض غير مسقوف محاذ لجدار القلعة الشرقي، وكان الجانب الغربي لهذا السوق يغطي جدار القلعة الشرقي (سوق الخندق) شمال سوق نصري حتى سنة (1984م)، حين هدمت المخازن الموجودة في هذا الجانب الواقع بعد باب القلعة الشرقي انكشف بذلك جدارها. (غوانمة، ي. 1982).

وقد اختلفت تسمية هذا السوق من سوق تحت القلعة إلى سوق العسرونية، ولعل هذا الاسم جاء نتيجة لبناء مدرسة عرفت باسم بانها وما يزال هذا الاسم يعرف به هذا السوق إلى يومنا هذا، والمدرسة العسرونية نسبة إلى قاضي القضاة فقيه الشام شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر ابن علي بن أبي عصرون بن أبي السري الموصلية ثم الدمشقي، أحد الأعلام وكان من الصالحين والعلماء العاملين كما قال الذهبي، (الذهبي، ش. د. م. أ. 1974) ولد بالموصل في شهر ربيع الأول سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين وأربعمائة وقدم بغداد، وتفقه على القاضي أبي محمد عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري، وتوجه إلى واسط بها على القاضي الفارقي أبي علي، وبرع عنده وتوفي في شهر رمضان وقد بلغ ثلاثاً وتسعين سنة، ومن الغريب أن ابن كثير والنعيبي صاحب الدارس يجمعان على إن عمر شرف الدين عند وفاته كان ثلاث وتسعين سنة

بينما إذا ما حسبنا من سنة ولادته أربعمئة وثلاث وتسعين حتى سنة وفاته فإن عمره يبلغ ثمانون عاماً (ابن كثير، إ. ب. ع. 1997)

وأطلقت تسمية سوق العسرونية على هذا السوق والمناطق المجاورة له نسبة للمدرسة المشار إليها ، وقد تعددت تسميات هذا السوق حسب المرويات التي أطلقها العامة على هذه المحلة، ولكن تمت الإشارة أنفاً إلى أصل التسمية الحقيقية ولا مانع من إيراد ما أورده بعض الدراسات الحديثة نقلاً من تسميات قديمة، وبعضها شعبي منها رواية تقول إن العامة أطلقوا هذا الاسم على هذا السوق لأنها كانت تفتح في النهار وما بين العصر والمغرب فقط. (الأيبيش، أ. 1996). وهذا خلافاً للرواية الحقيقية، أما الرواية الثانية فتقول إن العامة سمّت هذه المحلّة في العهد العثماني باسم (ضريح الشيخ عصرون) ، وكانت هذه المنطقة قديماً تُعرف باسم (حجر الذهب) ، احترقت عام 378هـ / 1000م) ، وفي أواخر العهد العثماني غلبت عليها السمة التجارية فكثرت بها محال بيع الأدوات المنزلية وبعض الخردوات ، مما اضفى اسم العسرونية على هذه الأصناف التجارية من باب التورية.

وفي عام (1895م) شيد فيها البنك الإمبراطوري العثماني ذو الجنسية الإنكليزية، ثم تحول إلى بنك (زلخا)، ولدى تأسيس البنك المذكور حمل الزقاق اسم (زقاق البنك). (القاسمي، م. س. 1988) كما عرف باسم سوق الخُرْضِجِية. (اسم لمتجر يبيع أصناف كثيرة ومتنوعة)

أقسام سوق العسرونية.

شهد هذا السوق تطوراً عمرانياً عبر العصور المتتالية، وعرفت أقسامه بأسماء متعددة، وأحتوت مشيدات ذات طابع خدمي وعلمي حيث يمكن تمييز أقسام متعددة لهذا السوق، كانت شاهداً على مدى استمرارية تطور وسكني هذا المكان، فمن أقسامه كما يذكر الباحث إبراهيم حقي محل عربي كاتبي، وفي منتصف سوق العسرونية بنيت مشيدة في العهد العثماني ذات خدمات مالية عُرفت باسم (بنك زلخا) أو بنك (مَرَقْدَة)

، وينتهي السوق في الناحية الشمالية بسوق الحدادين الذي يفتح في نهايته على شارع الملك فيصل، (الصواف. ص592)

والسائر في هذا السوق يجد في منتصفه مفرق يتفرع نحو الشرق طريق ضيق فيه (دار الحديث) التي كان يحدث فيها الشيخ بدر الدين الحسيني المسمى (المحدث الأكبر) ، الذي توفي في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين ، ويتفرع من هذا الطريق عدة فروع باتجاهات مختلفة هي أسواق صغيرة مغطاة أو غير مغطاة يتصل بعضها بسوق الحميدية بفتحات على قسمه الشمالي بعد سوق البورص ومنها، سوق مردم بك ، وسوق الجرابات ومن أقسامه أيضاً سوق البورص (البورصة)، (الشهابي، ق. 1986 . ص61-62). وهو سوق صغير ضيق في مدخله عدد من (الصرافين) كان أشهرهم شيخ (البساتنة)، وكان في دكان كل صراف خزائن بلورية صغيرة (جامات)، تعرض فيها العملات الأجنبية ومع كل صراف ميزان الليرات الذهبية لأن التعامل بالذهب كان شائعاً ولاسيما في الصفقات الكبيرة، ويحب الناس الحصول على الليرات الذهبية الإنكليزية (أم حصان)، أو الليرات الرشادية نسبة للسلطان رشاد، التي يزيد ثمنها قليلاً على الليرات الذهبية العادية (الغازية) التي كان سعر الواحد منها خمس ليرات سورية ونصف الليرة في الثلاثينيات ،

ومن أجزاء هذا السوق أيضاً باب البريد: وهو سوق مغطى في أوله ومكشوف في آخره، يتفرع من الجهة الشمالية لسوق الحميدية قبل المسكية مباشرة ويسير عمودياً عليه نحو الشمال، (الشهابي، ق. 1986 . ص59). وبالعموم فإن سوق العسرونية كان مؤلفاً من قسمين جنوبي وشمالي وفي مطلع الثمانينات أزيل النسق الغربي بغية الكشف عن الجدار الشرقي لقلعة دمشق وبابها الرئيسي، وأبقى على النسق الشرقي منه الذي يمتد سوق المناخلية، ومن أقسام سوق العسرونية زقاق ابن أبي عصرون الذي يمتد من الغرب إلى الشرق بين سوق العسرونية وسوق شاعر غازي، ويفتح فيه إلى يمين الداخل من جهة الغرب سوق البورص ثم سوق مردم بك، كما يفتح عند نهايته سوق

الجراجات وجميع هذه الأسواق تفتح من سوق الحميدية، أما إلى اليسار الداخل فسوق القدس بمدخله، بعده جادة بحرة الدقاقة. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج16، ص609).

المعالم العمرانية في سوق العصرونية:

تتواجد في هذا السوق مشيدات تاريخية مازال بعضها محافظاً على بنائه والبعض لم يبق منه سوى الواجهة وهي.

1 - مدرسة العصرونية: تنسب إلى الإمام شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون الموصلي الدمشقي، أحد أئمة الشافعية، ولي قضاء القضاة بدمشق، ثم أضرّ قبل موته بعشر سنين وبلغ القاضي شرف الدين ثلاثاً وتسعين سنة ونصفاً، ودفن بمدرسة العصرونية التي أنشأها غربي سوّيقة باب البريد قبالة داره لصق دار الحديث الأشرفية من الشرق ، وقد بُنيت سنة (575هـ) لأنه لم يرد ذكر لهذه المدرسة قبل ذلك التاريخ ، (داود . أ . 1986م، ص173).

وقد بكر المختلسون إلى هذه المدرسة منذ عصر المماليك حيث تحولت داره نفسها إلى قيسارية ، وفي القرن الرابع عشر استخلص بعض منها وتحول مسجداً ولم يبق منها إلا بركة في ساحتها ومصلى في الجانب القبلي، وتحول باقي المدرسة إلى حوانيت والقيسارية تحولت إلى خان للدواب، وفي سنة(1328هـ) احترق جزء من المدرسة وتم ترميمها على عجل وابقى على قبر الواقف، وبنى فيها مسجداً صغيراً لا شأن له وقد زارها (كارل) وذكرها في المربع.

أما اليوم فقد زال المسجد وتحولت المدرسة برمتها إلى محلات ومكتبات يرقد ابن أبي عصرون في أحدها. (العلي، أ. ح. 1989. ص147. 148).

2- دار الحديث الأشرفية الجوانية: موقعها في بداية الزقاق من جهة الغرب، شيدها الملك الأشرف موسى بن الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي سنة (630هـ / 1232م). (العلي، أ. ح. 1989. ص57)

3- دار الحديث النوري الكبرى: مكانها قرب النهاية الشرقية للزقاق، شَيدَها السلطان نور الدين محمود بن زكي، الملقب بالشهيد سنة (559هـ / 1164م)، استناداً للوحة المؤرخة بجوار بابها. (الشهابي، ق. 1990 . ج 1، ص 59).

4- المدرسة العادلية الصغرى: تقع قبالة دار الحديث النورية بين جادة بحرة الدقاقة وسوق القدسي أنشأتها زهرة خاتون بنت السلطان الملك العادل الأيوبي سنة (618هـ / 1221م).

5- الجدار الشرقي لقلعة دمشق وأبراجها وبابها الرئيسي: شَيدَها في العهد السلجوقي الأمير (اتسز بن أوق الخوارزمي حوالي سنة (470هـ / 1077م)، ثم أكمل البناء في زمن الأمير (تنش) من نفس العهد، وفي العهد الأيوبي قام الملك العادل أبو بكر بهدمها سنة (599هـ / 1202م)، وأقام مكانها قلعة أكثر تطوراً واستمرّ البناء حتى وفاته سنة (615هـ / 1217م)، (الشهابي، ق. 1990 . ص 78).

6- مبنى البنك الإمبراطوري العثماني: شيد البناء سنة (1313هـ / 1895م)، أيام السلطان عبد الحميد الثاني وشغله (البنك الامبراطوري العثماني)، ذو الجنسية الإنكليزية وشغل مكانه في العسرونية سنة (1932م)، حين تخلى عنه وانتقل إلى البناء الجديد في جسر فكتوريا فحل محله بنك زلخا. (العلي، أ. ح. 1989 . ص 141- 148 .).

أهم الصنائع والحرف في سوق العسرونية:

للأسواق الحرفية السورية طابع فريد ومتميز، وقد اشتهر بعضها منذ القدم على أنه تجاري حيوي الحركة والنشاط متنوع السلع والبضائع، بينما اشتهر بعضها الآخر بأنه موطن مزاولة الحرفيين اليدويين لصناعاتهم وإنتاجها، ومن الصنائع التي وجدت في سوق العسرونية.

1 - أراكيلي: هو في عرف أهل الشام صناع الأراكيل، والأركيلة تنقسم قسمين: شيشة، وجوزة وتسمى بورية، (الشيشة): زجاجة بللور كالكنينة، وتختلف كبراً وصغراً وجنساً

وحسناً، وغالب ورودها من بلاد الأفرنج، وقد تكون غير بللورة، من المعدن، النحاس الأبيض، منقوش نقشاً لطيفاً ترد غالباً من بلاد الهند، (الجوزة): هي المرادة من صنعة الشام، (القاسمي، م. س. 1988.ص 36-37) أركيلة الجوزة هي قشرة جوز الهند الأولى ، ثم تجلى جلياً لطيفاً ، وتصقل صقلًا ناعماً وتثقب ثقبين ، ثقب في رأسها وثقب أنزل منه ، فيوضع في الثقب الأعلى قلب من خشب مخروط لطيف مثقوب ، وفي الثاني قصبه مجوفة وعلى رأس القلب المذكور رأس من نحاس أصغر، صناع هذه الجوزة وما معها من آلات يقال له أراكلي ، وهذه الصنعة باقية منها بقية في الشام ، غالهم في محلة الدرويشية ، ويوجد منهم في باب القلعة . (أبو تراب، ع. م. دون تاريخ . ص 69).

2- برايشي: صانع البرابيش، جمع بريش، وهي آلة معلومة من آلات الأركيلة التي يُشرب بها التنيك، وهو الدخان المعلوم من آلات الأركيلة (القلب، الرأس المعمول من التراب المحروق فيه أثقاب، البريش)، صنعته: أن يلف شريط رفيع من حديد على قالب كالقصبه مستوية من خشب، ثم يلصق عليه جلد رقيق بالسرأس بأحكام جيدة ثم يلف فوق الجلد شريط أصغر أرفع من شريط باطنه، أو شريط لماع يسمى (طرقاً) أصغر، ثم يقطع ويجعل الطول على حسب رغبة المشتري ويجعل من أحد طرفيه فماً من خشب، وهذه الحرفة تجلب ربحاً في الجملة لكثرة من يستعملها. (القاسمي، م. س. 1988.ص-81 (80

3- تنبكي: هو من يبيع التنيك المعلوم، يشتريه من عند تاجرته بالنقد أو بالنسبة ويبيعه في دكان، والتنيك أجناس أجوده القادم من جهة العجم، (ابن بسام. أ. 2003م، ص332).

ويذكر القاسمي: "أما اليوم وأقصد به عند كتابة هذه السطور عام (1989م) فقد توزع هؤلاء الصناعات في أنحاء مختلفة من المدينة القديمة بعد أن هجروا سوق الدرويشية، ويتركز بيع الأراكيل في سوق العسرونية بشكل خاص رغم أنها تباع في بقية الأسواق ضمن السور وحوله" (القاسمي، م. س. 1988.ص 70)

4- مطر بازي: هو اسم لمن يبيع السلع المنوعة والأمتعة الجديدة والمستعملة أيضاً، ولأصحاب هذه الحرفة أسواق مخصصة بدمشق يعرف ب (سوق الأروام) فيه أصحاب الثروة من أهل هذه الحرفة، ويوجد عندهم أصناف السلع الثمينة من مفروشات وألبسة وأواني وغيرها. (القاسمي، م. س. 1988. ص 62).

5- أنتكجي: إي بائع الأنتيكة، وهذه اللفظة (لاتينية)، معناها أثر قديم، ومعنى الانتكجي: بائع الآثار القديمة، وهذه الحرفة قد راجت في هذا الوقت وذلك لرغبة الفرنج فيها وفي استمرارها، سيما إذ كان أثراً قديماً من زمان وأجيال، مكان بها تاريخ. (القاسمي، م. س. 1988. ص 40).

6- مخرّس: هو من يصلح ما انكسر من الأواني المعروفة بالصيني والمالقي والبلور وكانت الحرفة رائجة جداً، لقلّة ورود الأواني المالقية والبلورية من البلاد وغلاء أثمانها، فإذا انكسرت يأخذونها إلى المخرّس فيصلحها في كل إناء مكسور قطعتين أو ثلاث، إذا كان أكثر فلا يصلح، صنعته: هو أن يثقب المخرّس الإناء من أحد طرفيه بواسطة مثقب من حديد رفيع ويدخل بهما مسماراً من نحاس أصفر. (أبو تراب، ع. م. دون تاريخ . ص 87).

7- مبيض: هو من يبيض الأواني النحاسية بواسطة القصدير وذلك من الضروري إذا من المعلوم مضر تناول الطعام في الأواني النحاسية غير مبيضة، لما يتراكم عليها من الصدأ، فيأتي من أراد تبيض نحاسه للمبيض مقابل أجر لقاء عمله. (القاسمي، م. س. 1988. ص 82).

8- صيرفي: يقال له (صراف)، وهو من يبدل أصناف العملة حسب رغبة الطالب، ويقال لهم: (الصيارف) يجلسون في دكاكينهم وكل منهم مستعد لكمية وافرة من أصناف العملة الفضية والذهبية والنحاسية، فيأتي إليه من يرغب في تبديل العملة الذهبية والفضية أو بالعكس أو النحاسية، فيعطيه مطلوبه ويأخذ منه تقريباً في المائة عشرين بارة أو ثلاثين حسب الاتفاق بينهما، (القاسمي، م. س. 1988 221). صولقد رصدت المصادر المتعلقة

بالقوانين الناظمة للمهمن وتنظيم الأسواق والبيع والشراء، هذه المهنة حيث عرفها ابن طولون وضبط معاملاتها بقوله: (..... من حقه ألا يخلط أموال الناس بعضها ببعض وأكثر الصيارف يخلطون فيصبرون عامة أموال الخلق حراماً، والناس لا يدرون فهو إذن في ذمة الصيارف ومن حقه أيضاً معرفة عَقْد الصرف، وألا يبيع أحد النقدين بالأخر نسيئة بل نقداً)، (ابن طولون، م. ب. أ. 1992. ص175-186). كما أشتهر هذا السوق بمجموعة من الحرف والمهمن في بيع مستلزماتها منها حرفة عمارة البيوت، وقد ذكرت لنا المصادر المهمن المرتبطة بهذه الحرفة منها (البناء- مُشيد- العمائر- المطين- مجارفي - الدهان)، أبو تراب، ع. م. دون تاريخ. ص51-52-53). وغيرها من الحرف.

أثر الزلازل والحرائق على سوق العسرونية:

تعرضت دمشق بكافة أحيائها وأسواقها إلى عدد من الزلازل والحرائق تركت آثارها على مشيدياتها، ولم يكن سوق العسرونية بعيداً عن تلك الزلازل والحرائق حيث تعرضت دمشق لأعوام متتالية منذ العصر الأيوبي وحتى العصر العثماني لعدد من الكوارث خربت الكثير من معالمها العمرانية منها سوق العسرونية (غوانمة، ي. 1982. ص 267) حيث شهدت دمشق في الأعوام التالية العيديد من الزلازل نذكر الأكثر تأثر منها وهي: يذكر السيوطي أن زلزلة عظيمة أصابت بلاد الشام، فانهدم بسببها قلاع وقرى وسقط من رؤوس الجبال صخور كبار في سنة (575هـ / 1179-1180م)، (السيوطي . 1971م)

"دارت الأرض تسيير سيراً، والجبال تمور موراً، وما ظن الناس إلا أنها القيامة، وجاءت وقعتين دامت الواحدة مقدار ساعة أو أكثر"، (العجلوني، إ. دون تاريخ) . لكن الذهبي ذكر أن زلزلة حدثت في سنة(597هـ)، كانت زلزلة عظيمة خسفت بعض الأماكن وتحركت الجبال من أماكنها ورافقها خسائر في الأرواح بلغت مليون ومئة ألف نسمة، وذكرت بعض المصادر جاءت زلزلة في دمشق ثلاث مرات في يوم واحد فتهدم معظمها وسقط العديد من دورها أما الجامع الأموي فقد تهدمت شرفاته وتشقق رأس المنارتين الشرقية والغربية، (الذهبي، ش. د. م. أ.) 1974 وفي سنة (702هـ / 1303م)، في يوم 23

ذي الحجة من هذه السنة (9أب) حثت زلزلة عظيمة هدمت الدور، وهلك خلق كثير تحت الهدم وقد استمرت أربعين يوماً، ويذكر ابن اياس: (أن هذه الزلزلة اتصلت إلى دمشق والكرك والشوبك ، فهدمت أجزاء من القلعتين)، (ابن إياس، م. ب. أ. 1894) اما في سنة (722هـ / 1322م)، حدثت زلزلة بدمشق ليلاً وهزت الأرض هزة عظيمة ثم سكنت ولم تذكر المصادر عن الأضرار التي سببتها في عمران دمشق، (السيوطي . ص55) وفي سنة (807هـ / 1404م)، كانت شديدة صاحبها رجفة شديدة ودوي في الأرض استمرت طوال السنة ، وفي سنة (916هـ / 1510م)، حدثت زلزلة وكانت مصحوبة بصواعق وأمطار شديدة ولا يوجد تفاصيل. (العمادي، ح. أ. دون تاريخ)

أما الحرائق التي شهدتها دمشق فكانت إما بسبب الصراعات الداخلية، أو بسبب الصراعات الخارجية مع الصليبيين أو التتار الذين سببوا الكثير من الدمار والتخريب في المدن الشامية، وحدثت حرائق بسبب الإهمال والظواهر الطبيعية، بالإضافة إلى الكثير من الحرائق مجهولة السبب والتي لم ترد أسباب لها في المصادر، ربما لاهتمام المؤرخين في ذلك الوقت بتدوين الأحداث السياسية والعسكرية بشكل خاص، لذلك تم ذكر بعض الحرائق وأثارها دون الاهتمام بذكر أسبابها، (عاشور، س. ع. ف. 1979)

ومن هذه الحرائق ما حدث في صفر (637هـ / أيلول 1239م)، حدث حريق كبير في دار الحديث والحوانيت والدور حول القلعة، وذلك بسبب هجوم الصالح إسماعيل على المدينة (غوانمة، ي. 1982 . ص 267) وفي سنة (11 رمضان 681هـ / كانون الأول 1282م)، بسبب إهمال أحد الباعة في السوق أُحترق كل من سوق الكتبيين، والخواتميين الزجاجيين، والأساكفة، والمرجانيين، والفوارة وغيرها، وفي سنة (699هـ / 1299م)، أفتحم المغول المدينة بقيادة غازان وحاصر القلعة، فحرق الكثير من الدور والمساجد والمدارس والبساتين والمرافق العامة، (محمد، م. ص. 2009) وفي (ذي الحجة 707هـ / حزيران 1308م)، حدث خطأ في أحد أفران دمشق وأحترقت مساحة كبيرة من منطقة الظاهرية (عاشور، س. ع. ف. 1979 . ص 98) أما 26 شوال (740هـ / نيسان

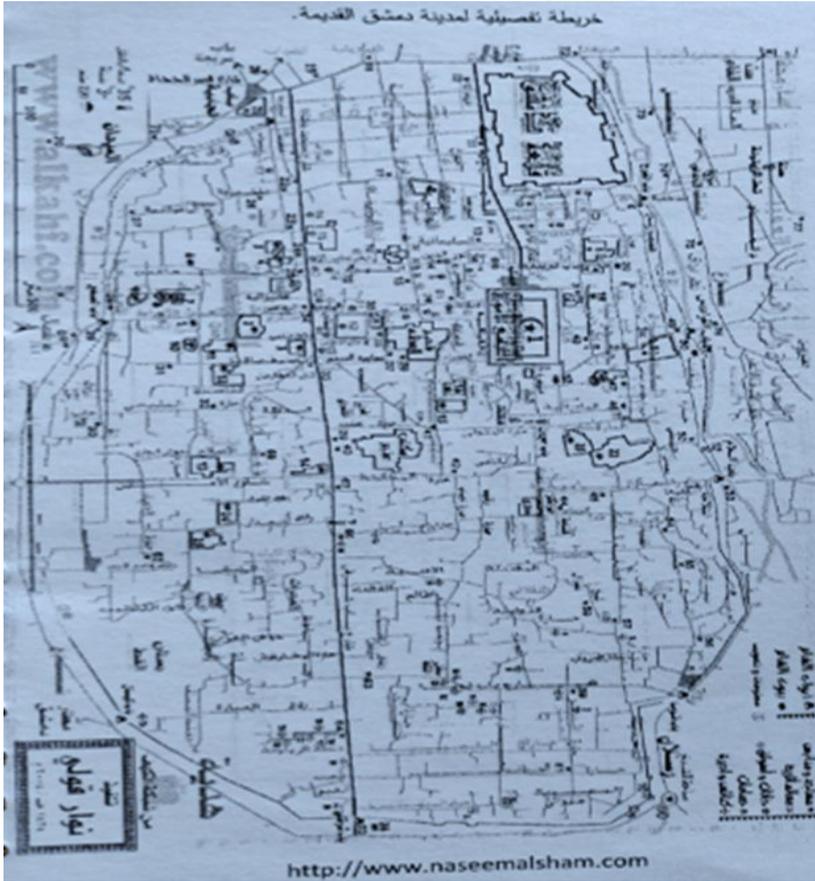
1340م)، أحترق عدد كبير من الأحياء والأسواق المحيطة بالجامع الأموي، وفي سنة (21 شعبان 794هـ / 13 ايلول 1392م)، احترقت أسواق الصناعة وسوق الدهيشة، والمئذنة الشرقية للجامع الأموي، (عبيد، إ. أ. 2015). (أما سنة (20 شوال 800هـ / 6 تموز 1398م)، أحرقت أسواق الحريريين، والقواسيين، والسيوفيين، والصراف، وبعض النحاسين، وفي سنة (3 شعبان 803هـ / 19 آذار 1401م) رحيل تيمورلنك عن المدينة بعد تخريب أغلب المدينة بما فيها من مساجد وأسواق وبيوت ومدارس ومرافق، وأحدث حريق في الأسواق عند باب الفردوس وسوق خان السلطان وباب الجابية وجملون دار السعادة وذلك بسبب القتال بين المؤيد شيخ وفرج بن برقوق وذلك في سنة (محرم 815- 818هـ / 1412- 1415م)، (أبو شامة. ع. 1962 467ص.). المقدسي وفي سنة (18 رجب 899هـ / 24 نيسان 1494م)، بسبب فعل مجهول احترقت أسواق الحريرية، والشماعين، والحبالين، والحدادين، وغيرها من الحرائق التي أثرت على مدينة دمشق وأسواقها بحرق دور العبادة والمسكن والمنشأة التعليمية من كتب والمكتبات أدت إلى الحرمان من قيمتها.

الخاتمة:

أن ما تمت الإشارة إليه في هذا البحث يعد مصدراً علمي موثق للتطور في دمشق بشكل عام وللسوق العسرونية بشكل خاص ، حيث وجدت فيه مختلف الصناعات الدمشقية منذ نشأته إلى يومنا هذا وإن كانت المدرسة التي شكلت محور تطوره، فإن دورها العلمي توقف ولكن بقى السوق ناشطاً في مجال التجارة والتفاعل الاجتماعي في هذه المدينة، وجاء العمران الحديث ليغير نمط البناء فيه حيث اختفت بعض الحرف التي كانت فيه وما تزال بعض الصناعات متداولة للبيع ضمن الحيز الجغرافي لهذا السوق، توصي الدراسة بصيانة معالمه العمرانية وتوثيق تلك المهن لأتمها جزء من تراث دمشق في الوقت أصبحت الصناعات الحديثة تغزو هذه الأسواق، إضافة فإن القيمة التاريخية لهذا السوق تعد جزء من تاريخ دمشق، ولهذا تأتي مهام الباحث في الحرص والحفاظ على ما تبقى من خلال توثيقه مدعماً ذلك بالخرائط والمخططات لإكمال الفائدة العلمية

التي توجب على المهتمين والمؤسسات المختصة التي تعنى بالتراث للحفاظ على هذه المعالم التراثية والتاريخية من خلال سن القوانين الناظمة من هنا توصي الدراسة أيضا بالاهتمام الأكثر لهذه الأسواق التاريخية من خلال توثيقها وتسليط البرامج التلفزيونية والإذاعية والزيارات الميدانية للطلبة في مختلف مراحل دراستهم وخاصة طلبة التاريخ والأثار والسياحة للتعريف بها وإحيائها بفكر الأجيال والحرص على تاريخ وتراث هذه الأمة، لأن الانسان هو الذي ينشئ ويبني ويصنع القيمة الحقيقية للمكان وما يوجد فيه من عمل الأجداد فيما مضى .

الملاحق:



الشكل (1)



الشكل (2)

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر المخطوطة

- العجلوني، إ. (دون تاريخ) تحريك السلسلة فيما يتعلق بالزلزلة. مخطوط، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية (ميكروفيلم)
- العمادي، ح. أ. (دون تاريخ). رسالة الحوقلة في الزلزلة. مخطوط، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية (ميكروفيلم)، نسخة عن جامعة برنستون.

ثانياً: المصادر المطبوعة

- ابن إياس، م. ب. أ. (1894). (بدائع الزهور في وقائع الدهور) ج1). القاهرة: مطبعة بولاق.
- ابن بسام، م. أ. (2003). (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تحقيق: محمد حسن إسماعيل وآخرون. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، و. د. ع. ر. (1988). (مقدمة ابن خلدون) تحقيق: حجر عاصي). بيروت: دار مكتبة الهلال.
- ابن كثير، إ. ب. ع. (1997). (البداية والنهاية) ج16، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي). الرياض: دار عالم الكتب.
- ابن منظور، ج. أ. م. (دون تاريخ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- ابن عبد الهادي، ج. ي. (1988). (نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق) تحقيق: صلاح محمد الخيمي). دمشق: دار ابن كثير.
- ابن طولون، م. ب. أ. (1992). (نقد الطالب لزغل المناصب) تحقيق: نزار أباطة). بيروت: دار الفكر.
- أبو تراب، ع. م. (دون تاريخ). (أسرار المهن تاريخاً وحاضراً). دمشق: بدون ناشر.
- أبو شامة، ع. ر. ا. م. (1962). (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية) تحقيق: محمد حلمي ومحمد مصطفى زيادة) ج1). القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

- الأبيش، أ. (1996). (معالم دمشق التاريخية. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- البستاني، ب. (دون تاريخ. (دائرة المعارف) مجلد 1). بيروت: بدون ناشر.
- الذهبي، ش. د. م. أ. (1974). (دول الإسلام) تحقيق: فهميم محمد شلتوت وآخرون). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الشهابي، ق. (1986). (دمشق: تاريخ وصور. دمشق: وزارة الثقافة.
- الشهابي، ق. (1990). (أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية. دمشق: وزارة الثقافة.
- الشهابي، ق. (1999). (معجم دمشق التاريخي) ج2). دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- العلي، أ. ح. (1989). (خطط دمشق. دمشق: دار الطباع.
- العش، م. ب. (2006). (دمشق بين الماضي والحاضر. دمشق: بدون ناشر.
- القاسمي، م. س. (1988). (قاموس الصناعات الشامية) تحقيق: ظافر القاسمي). دمشق: دار طلاس.
- غوانمة، ي. (1982). (التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي. عمان: دار الفكر.
- اليساف، ن. (2011). (دمشق: سيرة موجزة) ترجمة: غادة الحسين). دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- النعيمي، ع. (2006). (الدارس في تاريخ المدارس) ج1، تحقيق: جعفر الحسيني). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- سوفاجيه، ج. (1991). (الآثار التاريخية في دمشق) ترجمة: أكرم حسن العلي). دمشق: دار الطباع.
- عاشور، س. ع. ف. (1979). (العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام. القاهرة: دار النهضة العربية.

ثالثاً: الرسائل الجامعية

- عبيد، إ. أ. (2015) (الحرائق في مصر وبلاد الشام (254-923هـ / 868-1517م) (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الإسلامية – غزة.
- محمد، م. ص. (2009). (الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (491-923هـ / 1097-1517م) (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الإسلامية – غزة.



